العرب
الإثنين 2019/11/11
السنة 42 العدد 11525

كائن نياندرتال يحل ضيفا على هذا العالم

«ويليام» فيلم خيال علمي لم يتوغّل عميقا في الفانتازيا

كائن غير منتمٍ لأي شيء

الإنسان المختلف قدّمته الشاشات الفضية من خلال قصص متعددة، فهو قد يتمظهر بالقوة الجسدية الخارقة التي تتيح له أداء ما لا يستطيع أداءه البشر من أعمال أو عبر قوته الذهنية والاستبصار وطاقة تحريك الأشياء وما إلى ذلك. فهناك من امتلكوا تلك القدرات، لكن بالموازاة مع ذلك، هناك من أسبغوا عليها بعدا خياليا، كان مبالغا فيه في أحيان كثيرة.

طاهر علوان
كاتب عراقي مقيم في لندن

في سينما الخيال العلمي كان الإنسان الخارق عنصر جذب لجمهور عريض من المشاهدين الذين يرون في الشخصية المعروضة أمامهم ما يتوقون إليه من قدرات خارقة، وما يجعلهم يستمتعون بما تنجزه تلك الشخصية.

وخلال ذلك ذهب الخيال بعيدا بطرح السؤال الإعجازي: ماذا لو؟ وهذا ما ينطبق على فيلم "ويليام" للمخرج تيم ديزني، "ماذا لو أعدنا الإنسان إلى جذوره الأولى؟"، بمعنى ماذا لو أدمجنا الإنسان الحالي بإنسان الكهف مثلا، أيّ نتيجة سوف نحقّق؟

هذا السؤال وأسئلة أخرى يطرحها البروفيسور جوليان (الممثل وليد زعيتر) على طلبته في الجامعة، مستعرضا الحقب التي تطوّر بموجبها إنسان الكهوف وخاصة إنسان نياندرتال.

ويلتقي جوليان في ذات الوقع بعلم الأجناس والجينات الوراثية والإنسان الخارق مع زوجته باربرا (الممثلة ماريا ديزيا). لكن التطوّر يكمن في رؤية ما مختلفة؛ خيال وتمنيات علمية، خلاصتها ماذا لو أنجبنا طفلا بمواصفات كائن نياندرتال (بدائي)، وبالتلقيح الاصطناعي تحمل باربرا بذلك الطفل. ويليام، الكائن القادم من التجارب، ثقيل الوزن، غريب الملامح، وكيفما كان فهو مرتبط عاطفيا بتلك الأم التي بولادته انتهت صلتها به، إلى حد ما، بوصفه فأر تجارب، وهي التي تعتبره كائنا بشريا حرا ومتكاملا، لكن الأمر بالنسبة للبروفيسور جوليان ليس كذلك، إذ أنه يريد استمرار التجارب على ذلك المخلوق.

لعل خيالنا كمشاهدين سوف يحلّق بعيدا، إذا توقّعنا أن ذلك الكائن ذا الجينات المختلطة سوف يعيش حياة تتناسب مع قدراته العقلية وطباعه الخاصة، ولربما يرتكب أفعالا عنيفة، ولربما ينزوي عن العالم الذي من حوله، بل وربما أيضا يترك ذلك العالم برمته، لكن شيئا من ذلك لم يتحقق.

ينفصل الزوجان ويقف ويليام في المنتصف، هو بطيء التعلم والأب يريده نابغة ليؤكد نجاح مشروعه، بينما الأم تحاول دفع الشاب النياندرتالي إلى المضي في حياته.

ولعل مرحلة انفصال الزوجين هي التي كشفت أنانية الزوج وحتى لا مبالاته بشأن الكائن الذي تم إنتاجه في المختبر، وما يعزّز ذلك هو ذهاب ويليام بنفسه إلى رئيسة فريق البحث ليكتشف جذوره الحقيقية من خلال كائن نياندرتال تم تجميده.

وليس مستغربا في السياق الفيلمي الصراع ما بين ما هو إنساني وما هو نفعي، الجامعة ومركز الأبحاث مشغولان بما يمكن أن تثمر عنه تلك التجربة، بينما هنالك معاناة قاسية بين ويليام وأمه في مواجهة والده.

ربما وجد ويليام ضالته في من يصغي إليه ويثق في قدراته من خلال المشاهد التي جمعته بصديقة أبيه، وهي بالنسبة للأب مجرد امرأة تجالس ابنه وتقوم بتعليمه لا أكثر، ولهذا سوف يجد فيها ما يبحث عنه من حنان واهتمام، ولنكتشف في المشهد الأخير أنها قد أنجبت، ولربما كان الطفل الوليد هو ابن النياندرتال أيضا.

> الفيلم يطرح السؤال الإعجازي: ماذا لو أدمجنا الإنسان الحالي بإنسان الكهف البدائي، فأي نتيجة سوف نحقّق؟

الحس الإنساني العميق وتلك الأصداء التي تبعث الألم هي التي تتعلق بويليام في عزلته ومحنة وجوده الخاطئ، إذ أنه يكون قد جاء إلى زمن غير زمنه وإلى مكان ليس مكانه، وحياة ليست حياته.

بالطبع لم يبذل المخرج الكثير بالنسبة لهذا الكائن الغريب سوى تضخيم حاجبيه ودفع جبهته إلى الأمام وتكبير أنفه وكأن هذا هو كل شيء. كما سارت الدراما الفيلمية على وتيرة عزلة كاملة يفرضها وجود ويليام وحيدا، ثم لتدخل صديقة أبيه في مسار حياته ثم يرتبطان بصداقة عميقة.

وفي كل ذلك سوف يكتشف ويليام الخديعة الكبرى في تحوّل حاد للسرد الفيلمي، عندما يدخل قاعة المحاضرات ليجد والده الافتراضي يتحدّث عن غباء كائن نياندرتال وعجزه وأنه سوف يمضي في إجراء التجارب عليه، لينهض ويليام وسط المحاضرة ويفضح البروفيسور، فتنتهي المواجهة بينهما إلى نهاية مأساوية، يسقط البروفيسور أرضا بسبب ضربة من ويليام فيما يفقد الأخير حياته في هجوم للشرطة.

ولعل من التحوّلات المهمة في هذه الدراما تأسيس خط سردي يتعلق بكائن غير منتم لأيّ شيء ولا يكاد يصل إلى الإجابة عَن الكثير من الأسئلة، الكائن مختلف، ولكنه ليس ذلك الذي يتمتع بالخارقية، كما نتخيل، إلّا في هامش ضئيل لم يتم التأسيس عليه في المسار الفيلمي.

ومن بين التحوّلات الأخرى في هذه الدراما، تلك التي تبنى على متعة الاكتشاف ومنها ذهاب ويليام وأصدقائه في رحلة وسط الطبيعة وتدخّل شخصيتين؛ رجل وامرأة في وسطهم وكان دخولهما مقنعا، ولكن كان لا بد من البناء على ذلك، إذ ما الجدوى من دخولهما ثم انصرافهما ما لم تكن لذلك وظيفة درامية.

ربما تكمن الإشكالية في بناء الشخصية في السيناريو واتخاذ القصة منحى واقعيا، بينما جذر فكرة الفيلم تتحمل الكثير من الخيال والفانتازيا الذي لم يتم استخدامهما بما فيه الكفاية.

نقطة سوداء بعد السطر

فاروق يوسف
كاتب عراقي

غالبا ما تكون المعارض الجماعية رديئة المستوى. يُظلم الفنان الجيد حين يعرض في واحد من تلك المعارض. غير أن معرض "نقطة سوداء" الذي أقامته الرابطة التونسية للفنون التشكيلية في مدينة الثقافة بالعاصمة تونس أدهشني بسبب رفعة وجودة مستواه العام.

لم أر عملا رديئا يستحق أن لا يُعرض. أسوأ الأعمال كان مقبولا. وهي درجة يمكن التعامل معها بلطف، ذلك لأنها لن تؤذي الذائقة أو المزاج. أما الجزء الأكبر من الأعمال فقد كان جيدا، بما يعطي فكرة حسنة عن الفن التشكيلي في تونس الآن.

لقد صرت أردّد "تونس بخير"، وهي جملة أسعدتني. ذلك لأن تونس الجميلة يليق بها فن جميل. تلك فكرة، أروع ما فيها أن تجد لها خلاصا من خلال الوصول إلى الواقع.

عبّر الفنانون والفنانات المشاركات في ذلك المعرض عن مستوى رفيع في عرض الموهبة التي تمزج الحرفة بالخيال. بشكل عام لم يكن أحد غير متمكن من حرفته. كما أن البعض حلق بخياله إلى درجة مدهشة.

هناك لوحات لا يملك المرء أمامها سوى أن يصرخ إعجابا.

ذلك معرض يعيد إلينا الثقة بالفن التشكيلي التونسي الذي وهبنا عبر تاريخه رسامين كبارا. سيكون عليّ بعده أن أعيد النظر في فكرتي عن المعارض الجماعية. ولكن ذلك لا يحدث إلّا بسبب الرقابة التي يمارسها المشرف على المعرض. وهو دور لطالما خانه البعض حين قبل أن يكون شاهد زور فيرضى بكل ما يقدم له من غير أن يفكر في ما ينتج عن سلوكه السلبي.

> المرء يخرج بعد زيارة المعرض بفكرة إيجابية عن أحوال الفن التشكيلي في تونس، وهو ما يعدّ إنجازا مهما في مواجهة الفوضى التي تعاني منها المعارض الجماعية في العالم العربي

"نقطة سوداء" يطرح نموذجا مختلفا. فيه الكثير من الشعور بالمسؤولية كما أن الأعمال المعروضة ترتقي بحساسيتها إلى مستوى، يمكن القول إنه ما كان يتحقق لولا الصرامة التي مارستها المشرفة على المعرض هدى العجيلي بعد أن منحتها رئيسة الرابطة وصال بن سليمان كل صلاحيات التحكم بالعرض.

يخرج المرء بفكرة إيجابية عن أحوال الفن التشكيلي في تونس، وهو ما يعدّ إنجازا مهما في مواجهة الفوضى التي تعاني منها المعارض الجماعية في العالم العربي.

«نقطة سوداء» معرض جماعي مختلف

لأوّل مرة: عطيل أبيض وسط جمع من السّود

أبوبكر العيادي
كاتب تونسي

درَج رجال المسرح في الأعوام الأخيرة على قراءات جديدة للرصيد العالمي الكلاسيكي، بإحلال الأحداث في واقعنا المعاصر، أو تحديث الخطاب وإكسابه روحا عصرية، أو إسناد الأدوار إلى ممثل واحد ينهض بها جميعا. ولكن الفرنسي أرنو شوران عمد إلى قلب المعايير بجعل عطيل رجلا أبيض محاطا بأشخاص سود البشرة، دون أن تفقد المسرحية ثيمتها الأساس القائمة على التناظر بين الأقلية والأغلبية، رغم أن بعض النقاد رأى فيها خيانة للأصل.

والحق أن عطيل، الذي يكاد يكون الدور الوحيد في رصيد المسرح العالمي الذي يؤديه ممثل أسود، أثار جدلا واسعا في الأعوام الأخيرة، مع عودة العنصرية في الكثير من البلدان الغربية، من بينها فرنسا. جدل بدأ عام 2010 عندما عوّض الألماني توماس أوسترماير، مدير مسرح شاوبونه، عطيل بـ"بلاك" في الترجمة الخطية الفرنسية، والحال أن الترجمات المعروفة تصفه بالمغربي أو الأسود، وقد فسّر أوسترماير مسعاه بأنه من شأنه أن يلطف عنف العنصرية الكامنة في المسرحية، أي أنه اختار تجنب مواجهة رهانات النص.

تلاه لوك بلوندي عام 2015 وكان قد عهد بدور عطيل لممثل أبيض هو فيليبيب توريتون، بدعوى أنه لم يعثر على ممثل أسود جدير بذلك الدور، ولكن المشروع توقّف بوفاة المخرج، بعد أن أثار استياء أهل الصناعة من فنانين ونقاد وإعلاميين.

أما أرنو شوران فقد اتبع خيارا آخر، وهو أن يَكِل الأدوار كلها إلى ممثلين سود، باستثناء عطيل الذي يتقمّص دوره ممثل أبيض، ما أحدث تغييرا في رهانات هذه التراجيديا. فعوض العنصرية الأوروبية تجاه الشعوب الأفريقية، التي تحيل هزاتها التاريخية إلى قرون من الاستعباد والاضطهاد، خيّر التركيز على رفض ممثل الأقلية، أيا ما يكن، لأن كل فرد يمكن أن يكون وحيدا، أو منتميا إلى أقلية، مثلما اعتنى بالخطاب في قوته وأبعاده، لاعتقاده بأن "الكونية تقتضي اليوم إعادة البناء بشكل غير مسبوق، وأن توزيع الأدوار على هذا النحو يسمح بأن يقول إن مشروع شكسبير خلاصته أن الإنسان إنسان بصرف النظر عن دينه وعرقه ولونه".

التناظر بين الأقلية والأغلبية بشكل عكسي

تدور المسرحية على خشبة خالية إلّا من ثلاث ستائر داكنة، موزعة توزيعا يسمح بتبيّن مختلف الفضاءات التي تعبرها الشخصيات، وذلك مقصود لتسهيل عمليات الكوريغرافيا، حيث يرتدي الأبطال أزياء يطغى عليها الرمادي والأزرق الداكن شبيهة بأزياء مقاتلي الساموراي، ويقلدون حركاتهم وأساليب قتالهم.

هذا الانزياح الياباني يتواصل حتى لحظة انتحار عطيل، بسكين معقوف يشبه الطانطو الياباني، ويبقر بطنه بطريقة "هارا كيري"، وتشمل البساطة نفسُها الموسيقى المصاحبة التي اعتمدت الغناء الجماعي والأنغام الخالية من الإيقاع. وقد جعلت هذه التقنيات، التي بدت غريبة في البداية، لخلق مباعدة تفسح المجال لتأويل الشخصيات.

أما الحكاية فهي نفسها، حبّ جنونيّ بين عطيل، الجنرال المغربي الذي يعيّنه دوق البندقية حاكما على قبرص، وديدمونة ابنة برابانتيو، وغيرته التي دفعته إلى قتل حبيبته، رغم استقامته التي يعترف بها الجميع، بسبب ياغو حامل لوائه الذي دفعه الحسد إلى نسج حكاية كاذبة عن خيانة ديدمونة مع الملازم كاسيو، فكان ما كان.

> أرنو شوران أوكل جميع الأدوار إلى ممثلين سود، باستثناء عطيل الذي يتقمّص دوره ممثل أبيض، ما أحدث تغييرا في رهانات هذه التراجيديا

هي إذن حكاية عن خبث رجل يسعى جهده لجعل الآخر غريبا عن نفسه، وعن بلده، وعن حبّه. حكاية تتبدل فيها الوجوه، فيأخذ القوقازي الأبيض وجه المغربي الذي يعيش حياته كواحد من البندقية، ويتحدث لغة أهلها، ليكون الأبيض الوحيد وسط مجموعة من الرجال والنساء السود، ما يجعل لموت الآخر صدى مغايرا. والسؤال الذي تثيره المسرحية لا ينحصر في اختلاف عطيل عن محيطه والعنصرية المسلطة عليه، بل تشمل خصوصا تضحية الأفراد الذين يعتبرون أقلية، وآليات الإقناع، وهشاشة العقل البشري. فياغو، بما يملكه من مكر ودهاء، استطاع أن يتلاعب بعطيل ويدفعه نحو فظاعة مدروسة، فتحوّلت سرديةُ ياغو إلى واقع عطيل، ومن الطبيعي أن المهيمن عليهم بشكل أو بآخر هم من يفقدون الحياة، وهم هنا عطيل، وكذلك المرأتان اللتان لا يحسب لهما صوت، أي ديدمونة وإيميليا.

لم يكن الجنرال عطيل يطالب بشيء، كان يعيش كرجل من البندقية ولا يتعرض للكلام المغرض الذي يمكن أن يقال عنه، رغم طابع الاختلاف البادي في لون بشرته، ولكن غيريّته سوف يستغلها شخص آخر، لتصبح عاملا حاسما في مكيدة دُبّرت ضدّه، لعزله عن محيطه، وقطع روابط الحب والصداقة التي بناها في المجتمع البندقي. أي أن كل الجهود التي بذلها للاندماج في البلد الذي احتضنه، سوف تتولى بضعُ كلمات مرصوفة تحويلَه إلى غريب عن نفسه وعن الناس أجمعين.

وبذلك يمكن أن يكون عطيل رجلا أبيض إذا كان كلُّ مَن هم حوله سودًا. ومن هنا جاءت فكرة إخراج هذه التراجيديا، هذه التجربة الكونية في أن يكون المرء وحيدا وسط أناس لا يشبههم.